و للروح ارتواء

تفريغ محاضرة

السَّفيرُ الأوَّلُ

رواء الاثنين | د.هند القحطاني

١٤٤٤/٨/٢١ هـ

"السَّفيرُ الأوَّلُ"

بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيمِ

إنّ الحمدّ للّه نحمدُه، ونستعينُه ونستهديه، ونعوذ باللّه مِن شرورِ أنفسِنا، ومن سيّئاتِ أعمالِنا، مَنْ يهدِهِ اللّهُ فهو المُهتَدي، ومَنْ يُضلل فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إله إلّا اللّهُ وحدهُ لا شريكَ له، وأنَّ مُحمَّدًا عبدُه ورسولُه.

أمّا بعد...

حديثُنا في هذه المُحاضَرة عن شابٍّ ليس كباقي الشّباب، عن صحابيٍّ لم يعشْ حياةً عاديّةً، ولم يُسلِمْ إسلامًا عاديًّا، حتّى أنّ موتَه لم يكنْ عاديًّا، حديثُنا عن الصّحابيّ مُصعَبِ بنِ عُميرٍ الذي كثيرًا ما تحدّث عنه المُؤرّخون في بداية عمره.

- **<u>اسمُه ونَسَبُه:</u>**

مُصعبُ بنُ عميرٍ بنِ هاشمٍ بنِ عبد منافٍ بنِ عبد الدّار بنِ قصيٍّ بنِ كلابٍ القُرشيّ البدريّ، يُكنّى أبا عبد اللّه، ويلتقي مع النبي ﷺ في قصيّ بن كلاب، وهو من أشبه النّاس بالنبي ﷺ وجهًا وشكلًا.

أمُّه: خناس بنتُ مالكٍ، كانت من الطّبقة الغنيّة الرّاقية، وكانت تتمتّع بشخصيةٍ قويّةٍ فذّةٍ.

يُجمِع المؤرّخون أنّه كان غُرّةَ فتيان قريش، وزينةَ مجالسِها، وأَوْضَأَهم بهاءً، كما عُرف برجاحةِ عقله، وبحديثِه الموزون.

وُلِد في النّعمة وغُذِّي بها، وشبَّ تحت خمائلِها، فكان شابًا جميلًا، حَسَنَ الكِسوة، جميلَ الشَّعْر، أعطرَ أهلِ مكّة؛ يفوح عطرُه في الطّرقات، وكان حديثَ النّساء، وكان مُدلَّلًا عند أمّه، كيف لا؟ وهو وحيدُها. وتُوفّي أبوه صغيرًا وورثتْه أمّ مصعبٍ فأغدقتْ بالبذَخ على وحيدِها، فقد كانت تأتي بكسوته من الشّام واليمن.

زوجتُه: حَمْنَةُ بنتُ جحشٍ الأسديّة، أمُّها أميمةُ بنتُ عبد المُطّلب عمّةُ رسول اللّه ﷺ، وأختُها أمّ المؤمنين زينبُ بنتُ جحشٍ زوجةُ الرّسول ﷺ، وكانتْ حمنةُ صحابيّةً جليلةً، وراويةً للحديث النّبويّ.

- **<u>إسلامُه:</u>**

لم يكنْ راضيًا عن الحياة التي يعيشها، ولَطالما تفكّر أنّ ثمّة شيئًا وراءَ الغيب لا يشبه حياةَ مكّةَ وأصنامَها، فكان يملك في داخله قلبًا مُتسائِلًا عن جدوى حياةِ الإنسان؛ لماذا يعيش؟ أَلِأَجْل الأكلِ والشّرب واللّباس والمتعة؟ أم هناك شيءٌ آخرُ؟

عندما سمعَ برسالةِ النّبي محمّدٍ ﷺ ذهبَ مباشرةً إليه ﷺ يريد أنْ يسمعَ منه، مع أنّ وسيلةَ الإعلام -آنذاك- وهي الشِّعر أذاعتْ أنّ محمّدًا ساحر وشاعر ومجنون، ومع أنّه يعلمُ أنّ خطوة كهذه قد تُزلزِل قناعاتِه، وتعكّرُ حياةَ التّرف التي يعيشها، إلّا أنه -رغمَ كثيرٍ من المؤثّرات التي تمنعه- أصرَّ على الذّهاب للرّسول ﷺ قائلًا له: **"حدّثْني؛ بماذا تزعمُ أنّك رسولٌ؟"** فتلا عليه الرّسول ﷺ شيئًا من القرآن الكريم، فما لبِثَ مُصعبٌ أن قال: **"ابسُطْ يدكَ يا رسولَ الله، ثمّ شهدَ أنْ لا إله إلا الله، وأنّ محمّدًا رسول الله"**. جلسةٌ واحدةٌ فقط مع رسول الله ﷺ غيّرتْ حياتَه تمامًا، مع أنّه يعلم ماذا يعني إسلامه، وما الامتيازاتُ التي سيفقدُها جرّاء هذا القرار.

لقد أسلمَ مصعبُ بن عميرٍ مُستخفيًا، خوفًا على أمّه، فقد كان ابنًا بارًّا، إذْ لم يكنْ يريد أن يضايقَها، وعلى الرّغم من تكتُّمِه إلّا أنّها علمتْ، فغضبتْ وطرحتْ عليه عدّة تساؤلاتٍ: كيف تتركُ دينَ آبائِك وأجدادِك؟ ما الذي أنقصتْ عليك لتذهبَ إلى محمّدٍ؟ وحاولتْ معه لِتردَّه عن دينه بكلّ الطّرق؛ بالتّرغيب تارةً، وبالتّرهيب تارةً أخرى، وبالاستعطاف مرةً ثالثة، وكانت تقول له: **"أنا أمُّك وأنتَ أبرُّ النّاس، واللهِ لا أستظِلُّ، ولا آكُلُ، ولا أشربُ حتّى أموتَ أو ترجعَ لِدِين آبائِك"**، فقال: **"يا أمّاه! لا تفعلي، وإنّني والله لن أرجعَ عن دينِ الإسلام"**، فقالت: **"لا ألبسُ خمارًا، ولا أتغطّى عن حرّ الشّمس، ولا آكلُ، ولا أشربُ، أو أموتَ فيُعيِّرَكَ النّاسُ بعد ما كنتَ أبرَّ النّاس بي"**.

فلمّا يئستْ منه؛ أمرتِ العبيدَ أنْ يحبسوه ويوثّقوه، وقطعتْ عنه الطّعامَ والشّراب وكلَّ أنواعِ النّعيم، حتّى يرجعَ عن دينه.

يصِفُ المؤرخونَ حالَه فيقولون: **"فما زالتْ بهِ حتّى تغيّر لونه، وذهبَ لحمه... ولما طالَ الأمدُ على ثباته، وعرفتْ أنّه سيموت ولن يرجعَ عن دينِ الله ذي العزّةِ والجلال طردتْه من بيتها قائلةً: اخرجْ فلستُ أمًّا لك"**.

فخرج مصعبٌ من بيته حافيًا، عاريًا لا يملك إلّا بقايا الثّوب الذي قُيِّدَ وعُذِّبَ به، حاملًا في صدره قلبًا مملوءًا بالإيمان، فقصَد النبي ﷺ في دارِ الأرقمِ، وجلس معه لِيتعلَّمَ دينَ الله عزَ وجلّ.

- **هجرتُه إلى الحبشة:**

كان مصعبٌ مِن أوائلِ المسلمين الذين اشتدَّ عليهم بطشُ قريشٍ وأذاها، مما اضطرَّ رسولَ الله ﷺ أنْ يأمرَهم بالهجرةِ إلى الحبشةِ لأنّ مَلِكَها لا يُظلَمُ عنده أحدٌ، فكان فراقُ مكّةَ من أشدّ أنواعِ العذاب الذي قاساهُ مصعبٌ وبقيّةُ المسلمين، فمكّةُ منذ القِدم لها مكانةٌ مرموقةٌ بين البُلدان، يحجُّ إليها النّاس من قبل الإسلام، وتتمتّع بحضارةٍ ذائعةِ الصّيت، أضِفْ إلى ذلك أنّ المهجَرَ لا يمكن أن يكون دافئًا دفءَ البلد الأمّ مهما كان أهلُه طيّبين.

" ذُكِرَ أَنَّ مُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ قَدْ حَبَسَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُرِيدُ الْخُرُوجَ اللَّيْلَةَ فَإِذَا رَقَدُوا , قَالَ عَامِرُ بْنُ رَبِيعَةَ: فَنَحْنُ نَنْتَظِرُهُ وَلَا نُغْلِقُ بَابًا دُونَهُ فَلَمَّا هَدَأَتِ الرِّجْلُ جَاءَنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ فَبَاتَ عِنْدَنَا وَظَلَّ يَوْمَهُ حَتَّى إِذَا كَانَ اللَّيْلُ خَرَجَ مُتَسَلِّلًا وَوَعَدَنَاهُ فَلَحِقَهُ فِيهِ وَأَدْرَكْنَاهُ فَاصْطَحَبْنَاهُ قَالَ: وَهُمْ يَمْشُونَ عَلَى أَقْدَامِهِمْ وَأَنَا عَلَى بَعِيرٍ لَنَا وَكَانَ مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ رَقِيقَ الْبَشَرِ لَيْسَ بِصَاحِبِ رِجْلِهِ وَلَقَدْ رَأَيْتُ رِجْلَيْهِ يَقْطُرَانِ دَمًا مِنَ الرِّقَّةِ فَرَأَيْتُ عَامِرًا خَلَعَ حِذَاءَهُ فَأَعْطَاهُ حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى السَّفِينَةِ فَنَجِدُ سَفِينَةً قَدْ حَمَلَتْ ذُرَةً وَفَرَّغَتْ مَا فِيهَا جَاءَتْ مِنْ مَوْرٍ فَتَكَارَيْنَا إِلَى مَوْرٍ ثُمَّ تَكَارَيْنَا مِنْ مَوْرٍ إِلَى الْحَبَشَةِ وَلَقَدْ كُنْتُ أَرَى عَامِرَ بْنَ رَبِيعَةَ يَرِقُّ عَلَى مُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ رِقَّةً مَا يَرِقُّهَا عَلَى وَلَدِهِ وَمَا مَعَهُ دِينَارٌ".

- **حصارُه في الشِّعْب:**

الشِّعْبُ: هو المكانُ الذي قُوطِع وحُوصِر فيه بنو هاشمٍ لمدّةِ ثلاثِ سنواتٍ ابتداءً من السّنة السّادسة للبعثة...

بعد أن عاش مصعبٌ بن عميرٍ قرابة سنةٍ في الحبشة بَلَغَهم أنّ قريشًا هادنتِ المسلمين وتركتْهم يعبدون الله، فلما رجعوا إلى مكّة أدركوا أن ما سمعوه إشاعةٌ، وأنّ قريشًا لا زالت في شدّتها وأذاها، فدخل الشِّعْبَ مع النّبي ﷺ وبقيّةِ المسلمين، وحُوصِروا حتّى أرهقَهم الجوعُ والعطش، فاسمعْ -أخي في الله- كيف يصف سعد بن مالكٍ الأذى الذي أصاب مصعبًا، حيث كان مختلفًا عنهم فلم يكن مُعتادًا على شَظَفِ العيش كما أسلفنا؛ قال سعد بن مالك: **" كُنَّا قَبْلَ الهِجْرَةِ يُصِيبُنَا ظَلَفُ العَيْشِ** [أي: خشونته] **وَشِدَّتُهُ، فَلاَ نَصْبِرُ عَلَيْهِ، فَمَا هُوَ إِلاَّ أَنْ هَاجَرْنَا، فَأَصَابَنَا الجُوْعُ وَالشِّدَّةُ، فَاسْتَضْلَعْنَا بِهِمَا، وَقَوِيْنَا عَلَيْهِمَا. فَأَمَّا مُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ، فَإِنَّهُ كَانَ أَتْرَفَ غُلاَمٍ بِمَكَّةَ بَيْنَ أَبَوَيْهِ فِيْمَا بَيْنَنَا، فَلَمَّا أَصَابَهُ مَا أَصَابَنَا لَمْ يَقْوَ عَلَى ذَلِكَ، فَلَقَدْ رَأَيْتُهُ وَإِنَّ جِلْدَهُ لَيَتَطَايَرُ عَنْهُ تَطَايُرَ جِلْدِ الحَيَّةِ، وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْقَطِعُ بِهِ، فَمَا يَسْتَطِيْعُ أَنْ يَمْشِي، فَنَعْرِضُ لَهُ القِسِيَّ ثُمَّ نَحْمِلُهُ عَلَى عَوَاتِقِنَا".**

فلم يتراجعْ، ولم يندمْ، ولم يتردّدْ في اختيارِ هذه الحياة بل كان مُقبِلًا على دين الله تعالى بكلِّ عزيمةٍ.

ولمّا أراد أنْ يرجعَ إلى الحبشة بسبب ازديادِ وتيرةِ ظلمِ قريشٍ؛ حاولتْ أمُّه أنْ تحبسَه مرةً أخرى، فحلف بصوتٍ عالٍ أنّ أيَّ عبدٍ أو رجلٍ سيمسكه ويحاول حبسَه ليقتلنَّه، فزجرتْه وهي تعلم أنّه صادقٌ وينفّذ، فقالت

له وهي تخرجه: اذهبْ لشأنِك فما عدتُ أمًّا لك، فالتفتَ إليها وقال: **"يا أمّاه! إنّي لك ناصحٌ، وعليكِ شَفوقٌ؛ فاشهدي بأنّه لا إله إلا الله وأنّ محمّدًا رسول الله"**، فأجابتْه وهي غاضبةٌ مُهتاجَةٌ: **"قسمًا بالثّواقب** [أي: بالنّحوم] **لا أدخلُ في دينك، فيُزرَى برأيي ويُضعَّفُ عقلي..."**، لكنّها لم تدركْ أنّها اختارتْ قرارًا خاطئًا وها نحن نتحدّث عنه بعد أكثرَ من (1400) سنة.

- **<u>سفارتُه:</u>**

وتمرُّ الأيّام على المسلمين في مكّةَ حتّى يأتيَ العامُ الأصعب؛ العامُ الحادي عشرَ للبعثة، فيقِلُّ عددُ الدّاخلين في الإسلام، فالمسلمون مُستضعَفون، منهم مَن هاجرَ إلى الحبشة في المرّةِ الأولى، ومنهم من هاجرَ إليها في المرّةِ الثّانية، ولم ينفكّوا يتعرّضون للتّعذيب والإعدام، ويأتي موسمُ الحجّ، ويبقى النبي ﷺ على عادته يطوفُ بين الخيام يدعو إلى دينِ الله عزّ وجلّ، ويقول: **"مَن يأويني لأبلّغْ دِينَ ربّي فإنّ قريشًا منعتني؟"**، فإذا بستّةٍ من أهل المدينة من الخزرجِ يسمعون النّداء، فيخرجون من خيامهم، فإذا بالرسول ﷺ ووجهه الأنور، وإذا بعمّه يمشي وراءَه وهو يردّد: **"لا تستمعوا له فإنه مجنونٌ"**، فما كان من النّاس إلّا أنْ أغلقوا خيامَهم دون الرسول ﷺ لأنّهم عندما سمعوا مقالةَ عمِّه قالوا: **"عمُّه أدرى به"**.

أمّا السّتّةُ الخزرجيّونَ فلم يفعلوا ما فعله النّاس، فلمّا جَنَّ عليهمُ اللّيل ذهبوا يتسلّلون إلى النبي ﷺ، وقالوا: حدّثْنا ما الذي تقول؟ ماذا يعني رسول الله؟ وكان في أذهانهم قبل ذلك تمهيدٌ حول الموضوع، إذْ كان يقول لهم اليهودُ: يُوشِكُ أنْ يخرجَ نبيٌّ فإذا خرجَ قاتلناكم فغلبناكم. فقرأَ عليهم النبي ﷺ القرآن وحمد الله وأثنى عليه جلّ جلاله، فما خرج هؤلاء الستّةُ من تلك الجلسة إلّا وقد قالوا: **"يا رسول الله! العهدَ الذي بيننا وبينك العام المقبل"**، ورجعوا إلى يثرب، والنبي ﷺ لا يعرف عنهم شيئًا، وليس بينه وبينهم عهدٌ ولا بيعةٌ، ولا يملكون من الدّين إلا آياتٍ من القرآن علّمهم إيّاها النبي ﷺ، وأنْ لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله، فذهبوا إلى أقربِ النّاس وإلى الدّوائر الصّغيرة التي كانوا فيها، فأسلم معهم مجموعةٌ منهم.

ولما جاء العام المقبل -في موسم الحجِّ في العام الثّاني عشر للبعثة- فإذا باثني عشرَ رجلًا من الأوس والخزرج يرجعون إلى النبي ﷺ، ويجتمعون معه في منطقةِ العَقَبَة في مِنى، فكانت تلك بيعةُ العقبة الأولى. وطلبوا من النبي ﷺ أنْ يُرسِلَ معهم أحدًا يعلّمهم دينهم، فالتفتَ النبي ﷺ يتفحّص وجوه الصّحابة -رضوان الله عليهم- فرأى مصعبًا فقال له: **"اذهب يا مصعبُ"**. فكان أول سفيرٍ للإسلام يبتعثُه النبي ﷺ لهذه المهمّة الجسيمة.

وكان يرافقه أسعدُ بن زرارةٍ في تبليغ دينِ الله للأنصار بشكلٍ خفيٍّ، وبعد أيامٍ على هذا النّشاط عرضَ أسعدُ على مصعبٍ أنْ يذهبا إلى قبيلةِ بني الأشهل، وهي أكبرُ القبائل وأغناها، فذهبا وخيّما عند بئرٍ قريبٍ في بستانٍ صغيرٍ، وأصبح أسعدُ يُحضِر بعض الرّجال على دفعاتٍ؛ رجلينِ أو ثلاثة يُحدّثونهم عن الإسلام، فلَقُوا استجابةً مُلفِتةً، ممّا شكّل حَرَاكًا مُثيرًا.

وصلتِ الأخبار إلى سعدِ بن مُعاذٍ وأُسَيْدِ بن حُضَيْرٍ، وكانا سيّدا الأوس، وكانا على الشّرك، فقال سعدٌ لأُسيدٍ: **"اذهبْ إلى هذين الذين يُسفِّهان ضُعفاءَنا، فانهرْهما، فإنّ أسعدَ ابنُ خالتي، فاذهبْ واكفني إيّاهم"**. فانطلق أسيد بن حضيرٍ إلى مصعب بن عميرٍ وأسعدَ بن زرارةٍ، فطلب أسعدُ من مصعبٍ أنْ يهربَ، فرفض فقال له أسعد: هذا سيّدُ قومه قد جاءكَ، فاصدقِ اللّهَ فيه. فلمّا وصل أسيدٌ إليهما وقف عندهما راكزًا حربتَه وقال لهما: **"ما جاء بكما تُسفِّهان ضُعفاءَنا؟ اِعتزلانا إنْ كانتْ لكما في أنفسكما حاجةٌ"**، فقال له مصعبٌ: **"أوتجلسُ فتسمع؟ فإنْ رضيتَ أمرًا قبلتَه، وإنْ كرهتَه نكفُّ عنك ما تكره"**، فقال أسيدٌ: **"قد أنصفتَ"**، فأنزلَ حربتَه وجلسَ يسمع، فلم يجاوزْ مصعبٌ أن يشرحَ له الدّين بكلماتٍ قلائلَ، وتلا عليه شيئًا من القرآن.

يقول الصّحابة الذين كانوا حاضرين تعقيبًا على شرح مصعبٍ: **"لقد عرفنا الإسلامَ في وجه مصعبٍ في إشراقِه وتهليله"**. فلما انتهى مصعبٌ قال أسيدٌ: **"ما أحسنَ هذا وأجمله! كيف نصنع إذا أردنا الدّخول في دينكم؟"** قال: **"ما عليك إلّا أنْ تغتسلَ وتتوضّأَ، ثمّ تصلّي ركعتين"**. فقال أسيدٌ: **"إنّ من ورائي رجلًا سآتيكم به، فإنْ أسلم لم يبقَ من قومه أحدٌ إلّا وأسلم، يقصد سعدًا بن معاذٍ"**.

فمضى أسيدٌ إلى سعد بن معاذٍ، فلمّا رآه سعدٌ مُقبِلًا قال: **"أحلفُ لكم أنّ أسيدًا جاءكم بوجهٍ غير الذي ذهبَ به"**، فتأمّلْ -أخي المسلم- إشراقةَ الإسلام ونورَه الوهّاج! فلمّا وقفَ أسيدٌ على المجلسِ قال لسعدٍ: كلّمتُ الرّجلين، فوالله ما رأيتُ بهما بأسًا، وقد نهيتُهما، فقالا لي: نفعلُ ما أحببتَ، لكنْ اذهبْ إليهما فكلّمْهما، فذهب سعدٌ مُتوشّحًا سلاحَه، وقد تَمَلَّكَه الغضبُ لأنّ أسيدًا لم يُتِمَّ المَهمَّة، فقال لهما: ما الذي جاء بكما تُسفِّهان ضعفاءَنا؟ اعتزلانا، فقال له مصعبٌ: أوتجلس فتسمع؟ فإن رضيتَ أمرًا قبلتَه، وإن كرهتَه كففنا عنك ما تكرهُ، فقال سعدٌ: قد أنصفتَ. فتكلّم معه مصعبٌ، فما إنِ انتهى حتى قال له كلمةً واحدةً: كيف أصنعُ إذا أردتُ أنْ أُسلمَ؟ فقالوا له: تغتسلُ، وتُطهِّرُ ثوبَك، ثم تشهدُ شهادةَ الحقِّ، ثم تُصلّي ركعتين.

ولمّا رَجَعَ سعدٌ إلى قومه قالوا: **"نحلِف باللهِ لقد رَجَعَ سعدٌ بوجهٍ غيرِ الذي ذهب به"**، فما الذي يحصل لهؤلاء لدرجة أنّ وجوهَهم تتغيّر؟ ولمّا جاء سعدٌ وقف في منتصف المجلس، جمع قومَه، وجلس في مكانٍ مرتفعٍ وقال: يا بَني

عبد الأشهل؛ كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيِّدُنا، وأفضلُنا رأيًا، وأيمنُنا نقيبةً [أي: ذو كرمٍ وجودٍ]، فقال: فإنّ كلامَ رجالِكم ونسائِكم عليّ حرامٌ حتّى تؤمنوا بالله ورسوله. فما أمسى في قومه رجلٌ ولا امرأةٌ إلّا وأسلم تلك اللّيلة إلّا واحدًا يُقال له: الأصيرم، وقد أسلم في غزوةِ أحد.

أسلمَ إذن العديدُ من أهلِ يثربَ من الأوسِ والخزرجِ بإسلامِ سعدِ بنِ معاذٍ وأسيدِ بنِ حضيرٍ، بما فيهم سعدُ بنُ عبادة سيّدُ الخزرج، وانتشر الإسلامُ بسرعةٍ، وأصبح النّاس يتردّدون إلى سفيرِ الإسلام، الذي أقام فيهم عدّةَ شهورٍ.

وقُبيلَ بدءِ موسمِ الحجّ الجديد في -السَّنة الثّالثة عشرَ للبعثة- عاد مصعبٌ إلى رسول الله ﷺ يُبشّره أنّ أهلَ يثربَ قد أسلموا، وكلُّهم جاهزون لاستقبالِه، وكانت هذه السَّنةُ الأخيرةَ للمسلمين في مكّة.

يُقال في علم الاجتماع أنّ التّرف حاجزٌ على العقول والنّفوس، وأنّ حياةَ النّعيم عندما تكون عبارةً عن حلولٍ سهلةٍ فإنّها دائمًا ما تغطّي هذا الحاجز، فتمنع الإنسانَ من أيّ قرارٍ مصيريٍّ أو مُهمٍّ في حياته، لكنْ هذه ليستْ قاعدةً مُطلقةً؛ فليس كلُّ الأغنياءِ والمُترَفينَ وأصحاب الجاه وذَوي المناصب تخدّرتْ عقولُهم، ولا كلّهم يرفضون التّغيير، وهؤلاء الأربعةِ خيرُ دليلٍ على ذلك: مصعبٌ، وأُسَيدٌ، وسعدُ بنُ معاذ، وسعدُ بنُ عبادة؛ حيث كانوا من الأسيادِ والطّبقةِ المُنعَّمة، ومع ذلك كان لهم الشّرفُ في الإسلام، وما هو إلّا عامٌ أو أقلَّ حتى فشا الإسلامُ في المدينة.

لقد كان لمصعبٍ دورٌ كبيرٌ في نشرِ تعاليمِ الإسلامِ في يثربَ، وكلُّ مَن أسلمَ هناك في ميزانِ حسناتِ مصعبٍ بإذن الله، كما أنّ صِدقَ الأنصار ورجاحةِ عقولِهم وتحكيمِهم للمنطق كان مِن أعظمِ ما يكون، فهؤلاء هم بطانةُ المصطفى ﷺ، ورجالُ الإسلام الأوائل، وحماةُ الدِّين، وهم -أيضًا- المرحومون ذَوو الخَلَف المرحوم بدعوةِ رسول الله ﷺ: **"اللّهمَّ ارحمِ الأنصارَ، وارحمْ أبناءَ الأنصار، وارحمْ أبناءَ أبناءِ الأنصارِ".**

- **<u>بيعةُ العَقَبَة الثّانيّة:</u>**

قُبيلَ بدءِ موسمِ الحجّ الجديد -في السَّنة الثّالثة عشر للبعثة- عاد مصعبٌ إلى رسول الله ﷺ في مكّة يُبشّره أنّ أهلَ يثربَ قد أسلموا، وأنّهم جاهزونَ لاستقباله. وكانت هذه السَّنةُ الأخيرةُ للمسلمين في مكّة. ولمّا علِمتْ أمّه بعودته أرسلتْ وقالت: **"يا عاقّ! أتأتي بلدًا أنا فيه ولا تبدأُ بي؟!"** فقال لها: **"يا أمّاه ما كنتُ لأبدأَ أحدًا قبل رسول الله ﷺ".**

ولمّا بدأَ موسمُ الحجّ في هذه السَّنة جاء وفدٌ من أهل يثرب؛ ثلاثٌ وسبعون رجلًا وامرأتان هما (أمّ عمارة نُسَيبة بنت كعبٍ الأنصاريّة، وأمّ منيعٍ أسماء بنت عَمرٍو)، والتقوا مع رسول الله ﷺ في الحجّ، وكان مع الرسول ﷺ عمُّه العباس الذي كان وقتها لا يزال على الشّرك، وعرضوا على الرسول ﷺ انتقاله مع المسلمين إلى مدينتهم يثرب تجنّبًا لممارسات قريشٍ المُجحفة، وكان ذلك في منطقة العقبة أيضًا، وبدأتْ مراسم المُباحثات، وكان العباس عمُّ النبي ﷺ أوّلَ المتحدّثين، فقال: **"يا معشر الخزرج؛ إنّ محمّدًا منّا حيث قد علمتُم، وقد منعناه من قومنا، ممّن هو على مثلِ رأينا فيه، فهو في عزٍّ من قومه، ومنعةٍ في بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللّحاق بكم، فإنْ كنتُم ترَون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممّن خالفه فأنتم وما تحمّلتُم من ذلك، وإنْ كنتُم تَرون أنكم مُسلِّمُوه وخاذِلُوه بعد الخروج به إليكم فمِن الآن فدعوه، فإنه في عزٍّ ومنعةٍ من قومه وبلده".**

قال الأنصار: قد سمعنا ما قلتَ، فتكلّمْ يا رسول الله وخذْ لنفسِك وربِّك ما أحببتَ، أي: اشترطْ علينا ما تشاء فالمُهمّ أنْ تأتيَ معنا، فتكلّمَ النبي ﷺ، وتلا القرآن، ورغَّبَ في الإسلام، وقال: تمنعوني ممّا تمنعون به أبناءَكم ونساءَكم، أي: تعدّونني واحدًا منكم ولا تجاملونني في المعاملة، فقال أحدهم واسمه ابن التّيهان: **"يا رسول الله! إنّ بيننا وبين النّاس حِبالًا، وإنّا قاطعوها، فهل عسيتَ إنْ أظهركَ اللهُ أنْ ترجعَ إلى قومكَ وتتركَنا؟"** فتبسَّمَ النبيّ ﷺ وقال: **"بلِ الدَّمَ الدَّمَ، والهدمَ الهدمَ، أنتم منّي وأنا منكم، أحاربُ مَن حاربتُم، وأسالِمُ مَن سالمتُم"**، ثمّ قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عُبَادَةَ بْنِ نَضْلَةَ الأَنْصَارِيُّ: **"يَا مَعْشَرَ الْخَزْرَجِ، هَلْ تَدْرُونَ عَلامَ تُبَايِعُونَ هَذَا الرَّجُلَ؟ قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّكُمْ تُبَايِعُونَهُ عَلَى حَرْبِ الأَحْمَرِ وَالأَسْوَدِ مِنَ النَّاسِ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ إِذَا نُهِكَتْ أَمْوَالُكُمْ مُصِيبَةً، وَأَشْرَافُكُمْ قَتْلا أَسْلَمْتُمُوهُ، فَمِنَ الآنَ، فَهُوَ وَاللَّهِ خِزْيُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ إِنْ فَعَلْتُمْ. وَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا دَعَوْتُمُوهُ إِلَيْهِ عَلَى نُهْكَةِ الأَمْوَالِ، وَقَتْلِ الأَشْرَافِ فَخُذُوهُ، فَهُوَ وَاللَّهِ خَيْرُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ. قَالُوا: فَإِنَّا نَأْخُذُهُ عَلَى مُصِيبَةِ الأَمْوَالِ وَقَتْلِ الأَشْرَافِ، فَمَا لَنَا بِذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ نَحْنُ وَفَّيْنَا؟ قَالَ: الْجَنَّةُ. قَالُوا: ابْسُطْ يَدَكَ، فَبَسَطَ يَدَهُ، فَبَايَعُوهُ".**

فكانت بيعةُ العقبةِ الثّانية.

وبعدها أذِنَ النبيّ ﷺ للمسلمين بالهجرةِ إلى يثرب، ومِن ضمنهم مصعبٌ بن عميرٍ الذي هو محورُ درسنا، فلاحِظْ -أخي القارئ- أنّ مصعبًا هاجرَ في سبيل الله أربعَ مرّات؛ مرّتان إلى الحبشة، ومرّتان إلى يثرب، ودقِّقْ -أيضًا- أنّ أولئك اليثربيّين الذين وقفوا هذه المواقفَ المُشرِّفةَ هم تلاميذ هذا الشّابِّ.

- **<u>مكانتُه في الإسلام:</u>**

كان مصعب محبوبًا بشكلٍ كبيرٍ عند رسول الله ﷺ وعند الصّحابة -رِضوان الله عليهم- ولن يسعَنا مقامٌ ولا مقالٌ للحديث عن مكانته عندهم، لكنْ أذكرُ أحدَ أقوال النبي ﷺ فيه:

عن عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه قال: نظرَ النبيُّ ﷺ إلى مصعب بن عميرٍ مُقبِلًا وعليه إهابُ كبشٍ [أي: جِلد كبشٍ لم يُدبَغ] قد تنطَّقَ [أي: تَحَزَّمَ] به، فقال النبيُّ ﷺ: **"انظروا إلى هذا الرّجلِ قد نوّرَ اللهُ قلبَه، لقد رأيتُه بين أبوين يغدوان بأطيبِ الطّعامِ والشّرابِ، فدعاهُ حبُّ اللهِ ورسولِه إلى ماترَونَ".**

كما قال أبو هريرة عنه: **"رجلٌ لم أرَ مثله كأنّه من رجال الجنّة".**

- **<u>قصّتُه مع أخيه:</u>**

كان مصعبُ بنُ عميرٍ من مجاهدي موقعةِ بدرٍ، ولأهل بدرٍ -كما هو معروفٌ- مكانةٌ مرموقةٌ في الإسلام، وبعد المعركةِ وقعت حادثةٌ بينه وبين أخيه، وكان أخوه صاحبَ لواءِ المشركين بعد النَّضْر بن الحارث:

قال ابن إسحاق رحمه الله: **"حدّثني نُبَيْهٌ بن وهبٍ، -أخو بني عبد الدّار- أنّ رسول الله ﷺ حين أقبل بالأسارى -بعد بدرٍ- فرّقهم بين أصحابه، وقال اسْتَوْصُوا بالأسارى خيرًا. وكان أبو عزيزِ بنِ عميرٍ بن هاشمٍ أخو مصعبِ بن عميرٍ لأبيه وأمّه بين الأسرى. فقال أبو عزيزِ بن عميرٍ: مرَّ بي أخي مصعبُ بن عميرٍ ورجلٌ من الأنصار يأسرني، فقال مصعبٌ: شُدَّ يدَك به، فإنّ أمّه ذاتَ متاعٍ، لعلّها تفديه منكَ...".**

يبيّنُ لنا هذا الموقف مدى حبِّ مصعبِ الشّديد للإسلام وتفضيلَه له حتّى لو كان على حسابِ أخيه، فرجلٌ غيرُ مصعبٍ في هذا الموقف -مثلًا- لسعى إلى إخراجِ أخيه ممّا وقع فيه، ولكنّه ثبت وأظهر حرصه على الإسلام والمسلمين قبل أيّ اعتباراتٍ أخرى.

- **مُصعبٌ في أُحُد:**

حملَ مصعبُ بن عمير أثناءَ غزوةِ أُحد لواءَ المسلمين، وتقدَّم به أثناء الغزوة، وأثناء المعركة هجمَ ابنُ قمئةَ على الرسول ﷺ لكي يقتلَه، لكنّه لم يتمكنْ من قتله؛ لأنّ مصعبَ بنَ عمير استقبل الضّربة عن ﷺ ليفتديَه، وبدأَ مصعبٌ يقاتلُ في أرضِ المعركة وهاجمَه قمئةُ اللّيثي وهو يحملُ اللّواءَ، وضربَ يدَ مصعبٍ اليُمنى فقطعها، فأخذَ اللّواءَ باليسرى وهو يتلو قولَه تعالى: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾** (آل عِمران: 144).

فقطعها ابنُ قمئة، فضمَّ مصعبٌ اللّواءَ بعضديه إلى صدره وهو يتلو الآيةَ نفسَها، فطعنه ابنُ قمئة برمحٍ في صدره فقتله، وظنّه الرسولَ ﷺ، وبهذه الحادثة استشهد مصعبٌ.

وبعد المعركة تجوَّلَ الرسولُ ﷺ بين جثامينِ الشّهداء، ولمّا وصلَ عند مُصعبَ ورأى يدَيه مبتورتَين تلا قولَ الله جلّ جلاله: **﴿مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾** (الأحزاب:23). ثم قال: **"لقد رأيتُ مصعبًا وما أحدٌ بمكّةَ أرقَّ حُلّةً ولا أحسنَ لمّةً منه، ثم ها أنت ذا شَعِثُ الرّأسِ في بُردَةٍ".**

وعن خبّابٍ بن الأرت رضي الله عنه قال: "هاجرْنا مع رسولِ اللهِ ﷺ نلتمسُ وجهَ اللهِ تعالى [أي: نبتغي الأجر]، **فوقعَ أجرُنا على اللهِ، فمِنّا مَن مات، ولم يأكلْ من أجرِه شيئًا** [أي: حصلنا على أجرنا من الهجرة]، **منهم مصعب بن عمير، قُتِلَ يومَ أحد، وتركَ نمرةً** [أي: كساءً مُلوَّنًا من الصّوف]، **فكنّا إذا غطّينا بها رأسَه بدتْ رجلاه، وإذا غطّينا بها رجليه بدا رأسُه، فأمرَنا رسولُ اللهِ ﷺ أنْ نغطّيَ رأسَه** [لأنه الأشرف]، **ونجعلَ على رجليه شيئًا من الإذخر** [وهو نبتٌ طيّب الرائحة]، **ومنّا من أينعتْ له ثمرتُه، فهو يهدبُها** [أي: يقطف ثمرة الغنائم]".

كما شَهِدَ النبي ﷺ لمصعبٍ حينما نادى في أرضِ أُحُد الذين استشهدوا وقال: **"إنّ رسولَ اللهِ يَشْهَدُ أنّكمْ شُهداءُ اللهِ يومَ القيامةِ".**

لقد بذل مصعبٌ حياتَه منذ أسلمَ لله تعالى، وكانتِ الشّهادةُ خاتمةَ حياته، ففاز بما عند الله، وأعظِمْ به مِن فوزٍ! بعد أن أفنى طاقاتِه -منذ أسلمَ- في سبيل الدّعوةِ إلى الله تعالى وتعليمِ دينِه، فهذا الأمر وحده له مِن الأجر الشيء

العظيم فعن سهلِ بن سعدٍ رضي الله عنه أنّ النبيّ ﷺ قال لعليٍّ بن أبي طالبٍ -رضي الله عنه- حين أعطاهُ الرّايةَ يومَ خيبر: "انفذْ على رسلِكَ ثمّ ادعُهم إلى الإسلام وأَخبِرْهم بما يجبُ عليهم من حَقِّ اللهِ فيه، فوالله لَأَنْ يهدي اللهُ بكَ رجلًا واحدًا خيرٌ مِن حُمْرِ النّعمِ".

]حُمْرِ النّعمِ: جمع حمراء، وهي النّاقة الحمراء وكانت أعجبَ المال وأحبَّه إلى العرب في ذلك الزمن[، وفي هذا حثٌّ على العلم التّعليم، والدّعوة إلى الله عزّ وجل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: "مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، ومن دعا إلى ضلالةٍ كانَ عليه مِنَ الإثمِ مثلُ آثامِ مَنْ تبعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثامِهم شَيْئًا".

لقد ظلّ مصعبٌ يمُدُّ البشريّةَ بالدّروسِ والعِبَرِ إلى يومِنا هذا، فكنْ مُتّعِظًا -أخي في الله- بما تسمع، أوّابًا لذي الجلال والإكرام، فهكذا كان الصّحابة -رِضوان الله عليهم- وها هو عبد الرحمن بن عوفٍ -رضي الله عنه- يتّعظ من سيرة مصعبِ بن عميرٍ، إذْ قُدِّمَ له طبقٌ من طعامٍ وهو صائمٌ، فوقف وقال: **"قُتل مصعبٌ بن عميرٍ وهو خيرٌ مني، كُفِّنَ في بُردةٍ، إنْ غطتْ رأسَه بدتْ رجلُه، وإنْ غطتْ رجلُه بدا رأسُه، وقُتل حمزةُ وهو خيرٌ مني، ثمّ بُسِطَ لنَا مِنَ الدُّنيا ما بُسِطَ، وقد أُعْطِينا مِنَ الدُّنيا ما أُعْطِينا، وأخشى أنْ تكونَ قد عُجِّلَتْ لنا حسناتُنا، ثمّ جعلَ يبكي حتّى رُفِعَ الطّعامُ".**

وختامًا، أطرحُ سؤالًا مهمًّا:

حَتّامَ تستسلمُ لسَطوةِ المجتمع والواقع؟ وما موقعُك في دين الله تعالى؟

وحين تقرأ سيرةَ مصعبَ بن عمير ألا تطمحُ أن تكونَ مثلَه؟ ألا تُبصِرُ عيناكَ ما يستحقُّ التّضحية؟

فحتّام ترى -أخا الإسلام- الحياةَ طعامًا وشرابًا ولباسًا ومَتاعًا؟ ألا تريد أنْ تكونَ عنصرًا فاعلًا قبل أن يُدركَك الموت؟ ألا تخشى التّفريطَ بجنّة الله تعالى؟ أمَا مِن مهرٍ تدفعه لبلوغها؟ أم خُتِمَ على قلبك؟

فلتراجعْ نفسَك، وَلتزِنِ الأمورَ بموازينها، واستعنْ بالله في كلِّ الأمر.

أسألُ اللهَ أنْ يجمعَني وإيّاكم برسولِ اللهِ ﷺ وبصحابتِه الكرام، وأنْ يجعلَنا ممّن يمضي في طريقِهم ويتتبّعُ آثارَهم،

هذا والحمدُ للهِ ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على سيِّدِ المُرسَلين، سيّدِنا ونبيِّنا وحبيبِنا مُحَمَّدٍ، وعلى آله وصحبِه أجمعين.

تنويه: مادة المحاضرة جمعت من مصادر عدة وجميع المحاضرات في المدونة ليست كتابة حرفية لما ورد في المحاضرة؛ إنما تمت إعادة صياغتها لتُناسب القرّاء وبما لا يُخلُّ بروح المحاضرة ومعانيها